شخصيات خالدة

سميرة بيطام
كاتبة جزائرية

كثيرون هم من انسكبت أحلامهم في صراع البقاء دونما مسعًى لترك الحالمين في أحلامهم بنسج الصبح خيوط الأمل على توقعاتهم طيلة مشوار لامع بالأماني..

كثيرون هم من انحنَوْا أرضًا لالتقاط حبَّات السمسم المتناثرة بفعل فاعل لتشتيت الإرادة والصفاء والإخلاص لفكرة طالما كبرت وارتفعت معالمها إلى بعيد البعد في فسيح السماء العالية..

كثيرون من تألَّموا وحبسوا الدمع والصراخ ليكملوا المشوار بعيدًا عن الشكوك والظنون لأيادٍ طالت طويلاً لاقتصاص الحُلْم من مضجعه حتى لا تكتمل الحكاية بآخر مشهد الروعة والتشويق في معرفة ختام قصة البطل الذي تحدَّى عواصفَ وأطماعًا ونوايا سيئةً حتى غاب عن الأنظار؛ فارًّا من زوابع النكران للجمال المميز في الوجه والابتسامة الساحرة.

كثيرون من سهروا الليالي لتحصيل العلم النيِّـــر بصعوبة الحفظ والفهم في ظروف المطاردة؛ حيث يفر الحرف من الجملة فيختل التوازن في التعبير والمعنى، ويصبح التحريف في بداية كل كلمة عبارة عن تيه آخر يليه عدم الفَهْم، ومن ثَمَّ إلغاء الجملة التي كان الهدف منها إيصال معنى التحمُّل والانصهار من أجل حرية المبدأ والهدف.. والكل محتقر لهذه المساعي..

كثيرون هم من بكَوْا مع بكاء الشموع في ظلمة الليل، ولا أحد فهم هذا البكاء أو حاول احتواءه، خاصَّة وأنَّ أنين التعبير عن محاولة اغتيال القِوامة في مواجهة الصعاب لم يطلب مساعدة من أحد؛ لأنَّ العزيمة كانت مبنية على حسن التوكل على الله. وكلما كان الاعتدال في السلوك كان احتيار من أرادوا الاحتكار سخطًا ولغطًا لضوء منارة لم تخبُ للحظة في جزيرة الأحلام الواعدة.

فحينما أسترسلُ في مواساة هؤلاء المثابرين أجدهم مغلوبين على أمرهم من كثرة المقاومة باستماتة الخلق الرفيع والاحتساب لله عز وجل، فأرحل مع فكرهم الراقي لأتعلَّم منهم فنون الصبر والتحدِّي. لَكَمْ كان التنكُّر لهم قاسيًا وعنيفًا! لَكَمْ كان تهميشهم في عدم أخذهم بأحضان النصرة طعنات سكِّين في ظهر المغترب والوحيد!

صدقًا، أتفنَّن في فهم لُبِّ العقل لدى هؤلاء العظماء ممَّن حباهم الله بالتقوى والكفاح المستمرِّ

حتى يستقرَّ النَّفَسُ الأخير على تحقيق المراد، وما أصعبها من مهمة! بل ما أقساها من أمنية وهي تمتصُّ معها راحة البدن وخلوَّ الذهن من الهواجس وارتحال الضمير بحثًا عن الهناء!

بصراحة، أحتار حينما أريد فهم حجم المعاناة، ولكني – وبإحساسي – أختزل الكثير من المفاهيم والمآسي. في سِيَرَ هؤلاء رحيلُ مغتربٍ، فلا رسالة يتركونها وراءهم لإعلام الأحباب عن موعد الرحيل، ولا إفصاح بالجهر عن حجم الجراح لمن سكنوا صدورهم بالودِّ والإخاء في أحلى لحظات العمر.. إنَّها الهجرة حيث لا يُسمع صوتهم ولا حركة أقلامهم حين يبدعون في صمت.

لَكَمْ بلَّلَتْ دموعُهم صحائفَ خواطرهم! لَكَمْ سَكَنَ السكون بيوتهم؛ فلا تسمع لهم ضجيجًا ولا كلامًا مفهومًا ما عدا ما صِيغَ من طيب الكَلِم في تلاوة القرآن، وزانه الصبر المحمود والعودة إلى الله حين تضيق السبل ويتغلغل اليأس بداخل سرائرهم، فينقطع السبيل بينهم وبين صخب الدنيا وكأنَّهم أحياء ولكن أموات حينما يخفون ملامح الحقيقة أمام الناس، اعتبارًا من آثار مزَّقت بها أمواج الخديعة قلوبهم؛ حتى صار لهم شكل آخر وهندام مغاير ولغة متبدلة بحسب ما ترسَّب لديهم من خيبة أمل ممَّن قاطعوهم عن عمد؛ رغبةً في الإنقاص من قيمة ما تحمله عقولهم من فهم نادر وفكر نيِّــر.

تابعتُ خطى هؤلاء الغرباء –وما هم كذلك لدى عوامِّ الناس– لأنَّه لا أحد يعرف ماضيهم ولا آلامهم، ولكن الأصفياء من الناس يستأنسون بمجالسهم وحديثهم، فيلتفُّ حولهم الصغير والكبير من أعمار العارفين. إنَّها إرادة الله في ألاَّ يبقى هؤلاء النجباء غرباء طوال العمر حتى لا تفترَّ عزيمة الإبداع فيهم فيغيب الحلم ويغيب الأمل..

حتى أنا اشتقت لمحادثتهم، وبالفعل حصل، فكانوا لا يذكرون لأحد آلامهم ولا يستعرضون سِيَــرًا ممَّن أسالوا دماء الجراح عمدا فيهم، فكانوا يُغيرِّون الحديث إلى حديث آخر؛ حتى لا يغتاب من تنكَّروا لهم، لكني كنت أفهم وأدرك هذا التستُّــر، فكان أنِ استوعبتُ أنَّ العظماء لا يكبرون بكثرة الإنجاز وإنما بطيب الخُلُق في كظم الغيظ ومجاهدة النفس في ألا تجرَّ أصحابها إلى هاوية الفشل في أداء الرسالة الآدمية لاستمرار المنهج المحمدي وَفْق سُنَّة مباركة، فتكون بذلك الخسارة خسارتين؛ خَسارة أجر الصبر، وخَسارة أجر الاحتساب.

ما شاء الله على طاقات فاعلة مثل هذه! ما شاء الله على نماذجَ تبني ولا تهدم! ما شاء الله على هامات تُــخلِّــد أسماءها بتوقيع أناملها في أنَّها لا تتغيَّــر ولا تتصنَّع ولا تُقلِّد الغير! ما شاء الله على شخصيات خالدة، وستبقى كذلك ما دامت هناك نوايا طيِّبة وإرادات قويَّة في أن تغلق منافذ الشيطان من كل صوب حتى تنتصر الانتصار الأعظم...

ما أروعها من عقول تزن الفعل قبل أن ينطلق من أياديها! ما أثقلها من كفاءات ناضجة لا تنفعل لأدنى تصرف ولا تأتي بالمِثْل بل تصفح وتسامح! ما أجملها من نفوس تقيَّة تشتكي إلى الله ولا تشتكي إلى البشر، وفي يقينها ألف تأكيد أنَّ الله هو المفرِّج.

تبقى شخصيات مستخفية بظلِّها ما دامت حيَّة، وحينما تموت تدخل التاريخ من أوسع أبوابه بعد أن دخلت الدنيا من أضيق أبوابها بالزهد والقناعة؛ لتتحوَّل إلى شخصيَّات خالدة يُــخلِّــدها القلم والتاريخ واللسان والشواهد...